

## تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

يمثل الربع الأخير من القرن التاسع عشر عصر «هيمنة الإمبراطوريات»، ففي هذه المرحلة تغلغل الاستعمار الأوروبي في أنحاء المعمورة، وتنوّعت أشكاله بين استعمارٍ يستهدف نهب الموارد، وآخر يستهدف الهيمنة الاستراتيجية على المضائق وخطوط التجارة، وثالثٍ يسعى إلى الاستيطان والحلول محلّ سكان البلاد المُستعمرة. وقد ترسّخت هذه الهيمنة في العالم العربي في النصف الأول من القرن العشرين، الذي شهد نهاية رسم الخلافة وتفكك الدولة العثمانية وتقاسم تركتها بين القوى الاستعمارية، ثم شهد الصراع الأوروبي المدّمّر في الحربين العالميتين، وقيام النظام الدولي على أسس جديدة، تراجعت معها الحاجة إلى الاستعمار المباشر، الذي أخذت كلفته بالازدياد بفعل مقاومة الشعوب المستمرة.

كانت البحرين محطةً تجاريةً رئيسةً على طريق البصرة-الهند التجاري، الذي مثّل أحد الشرايين الأساسية للإمبراطورية البريطانية، منذ افتتاح شركة الهند البريطانية لفروعها الأولى في البصرة وبوشهر في عام ١٧٦٣م. وطوال القرن التالي، أخذ هذا النفوذ البريطاني -ممثلًا بوكلائه التجاريين، وجهاز القوة العسكرية (الأسطول البريطاني)، ثم بجهاز القوة المعرفي (الخبراء والمستشرقون) وجهازه القضائي- يتزايد على ضفتي الخليج، مع تفكك الإمبراطوريات الإقليمية (العثمانية، والصفوية، ثم القاجارية) وتراجع نفوذها، حتى أصبح أخيرًا -مع توقيع معاهدة الحماية عام ١٨٦١م- لاعبًا رئيسًا له اليد العليا في السياسة البحرينية، وفي غيرها من دول الخليج.

وبينما حظيت الجغرافيات الاستعمارية الكبرى بدراساتٍ وفيرة تناولت طبيعة الحكم الاستعماري وآثاره العميقة في صياغة الدولة الوطنية ونخبها القومية والاقتصادية وتحالفاتها المجتمعية وآلياتها في استبدال البنى القانونية والتعليمية،

ودورها في خلق الانقسامات الهوياتية داخل البلدان المستعمرة، وأيضاً ردود الفعل المختلفة والمعقدة للأمم المُستعمرة على الاستعمار، فإن دول الخليج لم تنل إلا قسطاً ضئيلاً من هذه الدراسات بالنسبة إلى ما حظيت به الهند أو مصر أو جنوب إفريقيا، بل وبالنسبة إلى الأقطار العربية الشامية والعراقية والشمال إفريقية بدرجة ثانية.

ومن هنا يأتي هذا الكتاب ليقدم سيرة للتحويلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي شهدتها البحرين في العصر الحديث، وهي سيرة تتناغم فصولها لترسم صورةً شاملةً وحيويةً لتفاعلات المجتمع والسلطة والاستعمار والنخب وخطابها. فقد انتهج الحكم البريطاني في البحرين نهج «الحكم المنقسم»، فأوكل إلى النخب المحليّة دور الوسيط الحاكم، وتولّى البريطانيون إدارة شؤون «الأجانب»، مع احتفاظهم باليد الطولى والسلطة النافذة، بالتولية لمن يرتضونه والعزل والنفي لمن يعارضهم، فأحكموا سيطرتهم على مفاصل الحكم المحلي كافة، فارضين نمطاً جديداً من الحكم والإدارة للمؤسسات وللمجموعات الاجتماعية المختلفة. كما عملوا على إبراز التمايزات العرقية والطائفية في البحرين، وعلى جعلها أساساً للحكم المحلي، وعلى تغذية ما يفرّق هذه المجموعات بعضها عن بعض، وذلك لتفتيت أيّ صورة من المعارضة الجامعة، ضمن السياسة المشهورة «فرّق تسد».

ومن ثمّ يُبرز هذا الكتاب دور الاستعمار في صعود الطائفية السياسية، كما يخرج من أسر النظرة السلبية للمجتمعات المُستعمرة؛ إذ لم تكن هذه المجتمعات مجرد مفعول به سلبي، خضع للتأثير الاستعماري والاستشراقي بلا مقاومة أو تغيير. فقد شهد الربع الأول من القرن العشرين ظهور جيلٍ جديدٍ - سيمّمه المؤلف «جيل النهضة» - تفاعلت نُخبه مع قريناتها في المجتمعات العربية المُستعمرة الأخرى، وبدأت تبلور خطاباً وطنياً مناهضاً للاستعمار، معتمدةً على مجموعة من المفاهيم السياسية والاجتماعية الجديدة، مثل: المجتمع، والإصلاح السياسي

والمدني، والأمة العربية والإسلامية، والتعليم النظامي، وضرورة المشاركة في اتخاذ القرار السياسي، وغير ذلك.

كما تمتد أطروحة الكتاب أبعد من البحرين والخليج لتمثل مصدرًا لا غنى عنه لكل باحثٍ وقارئٍ يطمع في فهم أوفى وأعمق لآثار التحديث والاستعمار وتفاعلاتهما مع المجتمع ونُخبه وثقافته وآثار ذلك البعيدة، في دول الخليج بخاصة، وفي العالم العربي والاستعماري بعامة.

وقد حظي هذا الكتاب هذا بتعاونٍ ثريٍّ بين مؤلّفه الدكتور عمر الشهابي ومترجمه الدكتور حمد الريس، كما حظي بعناية إضافية من المؤلّف، الذي خصّ الترجمة العربية بمقدمة ضافية، وبزياداتٍ مهمّة في عددٍ من الفصول والفقرات، مما جعل النسخة العربية منه تفضل عن الأصل الإنجليزي.

تأتي ترجمة هذا الكتاب في مركز نهوض للدراسات والبحوث تناغمًا مع اهتمام المركز بتحويلات الفكر والمجتمع والدولة في العصر الحديث، وأثر عملية التحديث وملابساتها في صياغة المجال السياسي في الدول العربية. وقد سبق أن نشر المركز مجموعةً من الكتب في هذا السياق، أبرزها: «الخلافة وصراع المسألة الشرقية» للدكتورة إسمى مهيل، و«الحركات الإسلامية السُّنية والشيعة في الكويت» للدكتور علي الزميع، و«الهوية الشيعية الكويتية» لعباس المرشد، و«الإسلام والتحديث» لتشارلز كورزمان، و«خلافة الإنسان» لآندرو مارتش.

ويأمل مركز نهوض للدراسات والبحوث أن يُسهم هذا الكتاب في توسيع وعميق نظر الباحثين في طبيعة التحوُّل الذي عمّ المنطقة العربية في القرنين الماضيين، والكشف عن الآثار الاستعمارية البعيدة لهذا التحوُّل، التي تمسُّ مفاصل الاجتماع السياسي الكبرى، كالطائفية والحكم المركزي وعلاقات الحكم والقوى المجتمعية.